مبارك الميلي ودوره في الحركة الإصلاحية بالجزائر.

د. صاري أحمد

عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة الأمير عبد القادر

مقدمة:

من بين الرجال الذين ساهموا بقوة في إرساء أركان الحركة الإصلاحية في الجزائر وعملوا بفعالية في نشر أفكارها بمختلف الوسائل: من تأسيس المدارس للتعليم. والوعظ والإرشاد في المساجد. والمساهمة بالمقالات المختلفة في الصحافة الإصلاحية الشيخ مبارك الميلي (1897ـ1945) صاحب كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" و"رسالة الشرك ومظاهره". فقد لعب دورا كبيرا في الحركة الإصلاحية بتأسيسه لمدرسة عصرية. وتخطيه لصعوبات عديدة لإخراج كتاب في جزأين حول تاريخ الجزائر من وجهة النظر الوطنية. ردا على مؤرخي المدرسة الاستعمارية. زيادة على هذا فهو المصلح الوحيد الذي استطاع أن يؤلف في ميدان كانت الحركة الإصلاحية في اشد الحاجة إليه. وهو ميدان العقيدة. فكانت رسالته حول "الشرك ومظاهره" التي بين فيها معنى الشرك وأنواعه ورد فيها على الطرقيين. بالرغم من كل هذا فاننا لا نعثر لحد الآن على دراسة وافية لحياته وأعماله ولا عن بحث يفيدنا عن مدى مساهمته في الحركة الإصلاحية منذ بداية العشرينات إلى غاية وفاته في شهر فيفري 1945. فما كتب حوله لحد الآن لا يتعدى في اغلب الأحيان شهادات بعض زملائه للتذكير بمراحل حياته كلما حلت ذكرى من ذكريات وفاته. هذا مع العلم أن العديد من زعماء الحركة الإصلاحية كالشيخ عبد الحميد بن باديس(1). البشير الإبراهيمي(1889ـ1965)(2). الطيب العقبي(1888ـ1960)(3). العربي التبسي (1895ـ1957)(4) والأمين العمودي (1890ـ1957)(5) قد جذبوا انتباه الباحثين فخصصوا لهم المقالات والدراسات المختلفة. وجمعت آثار البعض منهم. إن هذه اللامبالاة قد تعود إلى شخصية مبارك الميلي في حد ذاتها. ذلك انه عكس بعض زملائه كان يعمل في صمت وخفاء بعيدا عن الأضواء. فشخصيته المحافظة. وربما وفاته المبكرة أيضا. هي الأسباب التي أدت في رأينا إلى عدم الاهتمام به وتخصيص دراسة له أو على الأقل جمع تراثه. المتناثر هنا وهناك في الصحف الإصلاحية.

إن المساهمات الوحيدة التي تناولت لشخصية مبارك الميلي وتستحق الذكر تتمثل أولا في بعض المقالات التي خلد بها زملاؤه ذكرى وفاته الثالثة(6). وثانيا مساهمة محمد علي دبوز(7) الذي تتبع مراحل حياة الميلي. إلا أن معلومات هذا الأخير لا تخلو من الأخطاء العديدة. خاصة فيما يتعلق بتاريخ انتقاله إلى مدينة الاغواط والرجوع منها إلى مدينة ميلة. وثالث مساهمة هي لعلي مراد(8) الذي ألقى الضوء على هذه الشخصية في إطار ترجمته لمسيرة

رجال الإصلاح ككل. وإعطاء مدينة الاغواط. التي استقر بها الميلي لفترة ما. كنموذج لبعض المراكز الإصلاحية(9). وأخيرا الدراسة المختصرة التي نشرها السيد نوال(10) (Jean Noël) سنة 1938 في مجلة إفريقيا الفرنسية(*l'Afrique française*). وكذلك أحد التقارير المرقونة والمؤرخة بمدينة ميلة سنة 1936، وتقع في خمس صفحات، ولكنها مجهولة الكاتب. وان كانت قريبة في أسلوبها ومعلوماتها من مقال السيد نوال السابق مما قد يوحي بأنه هو كاتبها. نظرا لهذا النقص في الترجمة والتعريف بشخصية مبارك الميلي الذي يعتبر من أهم رجال الإصلاح. نحاول في هذه الدراسة أن نلقي بعض الأضواء على مسيرته ودوره في الحركة الإصلاحية.

النشأة والتكوين:

ولد مبارك الميلي سنة 7981 ةنالفكـتـك اميتيـ شاعو .ةيليملا يحاونب ثرابمه دلاوأ راودب جده. ولما توفي هذا الأخير كفالته عماه. ودخل كتاب القرية كعادة أبناء ذلك العصر. ونظرا للتفوق الذي أحرزه من بين زملائه، شجعه شيخه على مواصلة التعليم ووجهه نحو مدينة ميلة غير البعيدة عن موطنه الأصلي. وهنا تختلف الروايات، فبعض زملائه وتلامذته بجمعية العلماء يرون أن عميه كانا يعملان على إبقائه في الميلية من اجل رعاية ماشيتهما والقيام بأشغال الفلاحة — ومن الممكن جدا أن يكون الميلي نفسه هو الذي روى لهم ذلك —. وفي هذا يقول أحمد بوزيد قصيبة:"كان يريدان أن يزجا به في معترك الحياة ويستخلصاه لرعي ماشيتهما والقيام بمصالح تراث العائلة الصغير. وقررا فصله عن الكتاب والتعليم ظنا منهما انه قد حصل على ما فيه من الكفاية."(11). في حين يرى السيد نوال (M. NOEL) انه أرسل إلى ميلة من طرف معلمه وبموافقة أسرته(12). ويبدو أن الظروف الصعبة التي غادر فيها الفتى مبارك قريته هي التي تفسر لنا هذا الاختلاف. فيصور لنا بعض زملائه في جمعية العلماء هذا "الهروب" تصويرا تقريبا خياليا. فيقول في هذا الصدد الصادق حماني :"أفلت الشيخ الطفل من براثن العمومة الضارية فارا فرار موسى من القبط لأنه أدرك وهو على سن دون الإدراك انها تريد آن تتخذ منه أخا الصبا راعيا وانه إن تطور أخا يفاعة كان حمالا أو لماع أحذية ثم حماسا أخا شباب وكهولة. فحفزه هذا التوثب إلى الإفلات والفرار..."(13). ويصور لنا تلميذه أحمد بوزيد قصيبة، الذي أصبح فيما بعد من مسئولي الجمعية، نفس المشهد بما يلي:" تأبط مبارك الفتى"لوحته" وافلت من مصيره الذي كان يريده له عماه وترك قريته طالبا أرضا سواها غير ملتفت إلى ما وراءه، وسار راجلا نحو ميلة لا يلوى على شئ يريد التعلم ويريد الحياة."(14).

نفهم من كلام هؤلاء أنه خرج من مسقط رأسه خفية لأن عميه كان يعارضان إتمام دراسته وإشباع رغبته من العلم. وهذا غير مستبعد بالنسبة لعقلية ذلك العصر. وخاصة في دشرة صغيرة مثل أولاد مبارك مسقط رأس الميلي. وما دام أن مدينة ميلة كانت من أقرب المدن إلى مدينة الميلية. وتوفر نوع التعليم الذي كان يبحث عنه. فمن

الطبيعي أن يختارها مبارك الميلي لمواصلة تعليمه. عند وصوله إلى مدينة ميلة. ولم يكن له بها، على ما يبدو أقارب يستعين بهم، تولى كفالته مصطفى بوالصوف أحد أعيان مدينة ميلة والمستشار العام بها آنذاك. وفي هذه المدينة تعلم على يد الشيخ بن منصور محمد الميلي(15). وكان هذا الأخير من أشهر المدرسين بمدينة ميلة. ومن المحتمل أن تكون هذه الشهرة هي التي دفعت بمبارك الميلي لاختيار هذه المدينة للأخذ على يد هذا الشيخ. ويظهر أيضا أن الشاب مبارك قد تأثر بشيخه محمد الميلي وأنه لم يأخذ عنه العلم فقط، بل كان قدوة له في الأخلاق والتربية أيضا. ومن ناحية أخرى يبدو أن المدرس وجد في تلميذه ما لم يجده في بقية التلاميذ، من ذكاء وخلق طيب، لذلك قربه منه. وتوطدت العلاقات بينهما فيما بعد حتى وصلت إلى حد المصاهرة، حيث تزوج مبارك الميلي إحدى بنات شيخه.

وفيما يخص تعليمه فنحن لا نعرف بالضبط ماذا درس في مدينة ميلة، ما عدا بعض الإشارات التي تفيد بأنه حفظ القرآن تم حفظ النصف من متن خليل. كما أننا لا نعرف بالضبط المدة التي قضاها للدراسة بمدينة ميلة، إلا انه حسب بعض الإشارات يكون قد بقي بها ثلاث سنوات (1916ـ1919). وما يدعم ذلك التحاقه بالجامع الأخضر بمدينة قسنطينة سنة 1919. ومن المعلوم أن هذا الجامع الذي كان يدرس به آنذاك الشيخ ابن باديس، كان مركزا للإشعاع الفكري. ولا نظن أن التحاق مبارك الميلي "بمدرسة" ابن باديس كان بمحض الصدفة، فقد تكون شهرة هذا الأخير هي التي دفعته إلى الجامع الأخضر. وقد يكون شيخه محمد الميلي هو الذي نصحه بذلك. ومن المحتمل أيضا أن يكون قد بادر إلى هذا الاختيار بمحض إرادته، خاصة وأن عمره آنذاك كان يتعدى العشرين سنة، ففكر في السفر لطلب العلم بعد أن أصبح مستوى التعليم بميلة لا يشبع رغباته. ولا ننسى أيضا أن قسنطينة كانت آنذاك نقطة عبور ضرورية لمن يريد متبعة دراسته بجامع الزيتونة بتونس.

لكل هذه الأسباب التحق مبارك الميلي بحلقة تدريس ابن باديس، إلا انه لم يمكث بها طويلا، حيث بقي بها حوالي سنة فقط ثم غادرها إلى الزيتونة. ومن المحتمل أن يكون ابن باديس هو الذي وجه الميلي إلى الزيتونة بعد أن رأى فيه علامات الطموح. وفي هذا يقول أحمد بوزيد قصية:"...فأعجب به أستاذه (ابن باديس) واحبه كثيرا وقربه إليه وعلم أن الجزائر ستنال على يديه خيرا كثيرا فآزره واعتنى به وشجعه ثم أرسله إلى تونس بعد أن مكث سنة بقسنطينة. فزاول بها دروس جامع الزيتونة مدة ثلاث سنوات إلى أن نال شهادة التطويع سنة 1924م"(16). نفهم من هذا الكلام انه سافر إلى تونس في حوالي 1921 أو1922 ما دام أننا لا نعرف بالضبط تاريخ عودته. في حين أن هناك من يحدد تاريخ سفره إلى تونس بسنة 1919 (17) وتاريخ عودته منها بسنة 1922(18).

الميلي في الأغواط:

حسب عبد الحفيظ الجنان، وهو أحد الذين عرفوا مبارك الميلي، أنه بعد عودة هذا الأخير من تونس كان ينوي "إنشاء مطبعة كبرى تطبع المخطوطات وتنشر الجرائد والمجلات، لتحيى أمته حياة عملية لا نظرية..." إلا انه وجد أن ابن باديس قد شرع في تنفيذ هذا المشروع فعمل تحت رايته(19). وما دام المجال الوحيد تقريبا الذي كان متاحا آنذاك لخريجي الزيتونة هو التعليم فقد انظم مبارك الميلي إلى هذا السلك. لكنه لم يتبع الطريقة التقليدية في التدريس، بل دشن حسب معاصريه نمطا جديدا من التعليم العصري، بل إنه احدث حسب بعض معاصريه ثورة في هذا الميدان: "فكان أول معلم انشأ ودشن التعليم المدرسي العصري المنتشر الآن (1948) في كامل القطر الجزائري"(20). ويرى أحمد توفيق المدني أن المدرسة القرآنية التي كان يشرف عليها "كانت النموذج الصالح للمدارس العربية الحرة آنذاك"(21).

وعلى الرغم من المزايا الكثيرة التي توفرها مدينة كبيرة كمدينة قسنطينة لرجل العلم، إلا أن الميلي سرعان ما تركها وتوجه إلى مدينة الأغواط بالجنوب الجزائري من أجل مهمته الأساسية وهي التعليم. وإذا كان من الصعب التكهن بالأسباب الحقيقية التي دفعت مبارك الميلي للهجرة إلى هذه المدينة، فبالإمكان أن نذكر عدة أسباب منها:

أولا: رغبة ابن باديس في توزيع تلامذته النجباء، ومن بينهم الميلي، على مختلف أنحاء القطر الجزائري لنشر الفكر الإصلاحي وتأييد دعوته؛

ثانيا: يظهر أن عبد العزيز بن الهاشمي(22)، شيخ الطريقة القادرية، الذي قام بتنفيذ وصية والده الهاشمي ببناء مدرسة حديثة بالاغواط سنة 1922(23)، هو الذي اقترح على الاغواطيين جلب الميلي إلى هذه المدينة، خاصة وأن هذا الأخير كان زميلا لعبد العزيز بن الهاشمي على مقاعد الدراسة بالزيتونة، وبذلك فهو يقدر مكانة الميلي العلمية ودرجته في التعليم.

قبل أن يلتحق الميلي بالاغواط أراد جس النبض والتأكد بنفسه من الميدان الذي ينوي الرحيل إليه. فسافر إلى هذه المدينة في شهر أوت 1926 وتعرف على العاملين بها. وتذكر جريدة النجاح أن الميلي قد استقبل استقبالا حارا في الأغواط ونزل بالزاوية القادرية بقصد التدريس بها، وكان عبد العزيز بن الهاشمي هو المبادر إلى ذلك(24). ثم كان سفره الطويل فيما بعد والذي استمر من سنة 1927 إلى غاية سنة 1933. ولم تكن مهمة الميلي سهلة في هذه المدينة، فهي بالإضافة إلى خضوعها للنظام العسكري الذي كان يحكم المناطق الجنوبية، والذي يتميز بقسوة وشدة قوانينه مقارنة بالنظام الذي تخضع له المناطق الشمالية، فإن هذه المدينة ونواحيها كانت أيضا مجالا لنفوذ الطريقة التيجانية، المعروفة بمعارضتها الشديدة للحركة الإصلاحية، خاصة وان المركز الأم لهذه الطريقة بعين ماضي لم يكن

يبعد كثيرا عن مدينة الاغواط. في هذه الأجواء استطاع الميلي بحنكته السياسية، التي سيستغلها فيما بعد عند عودته إلى مدينة ميلة، أن يستفيد من معارضة أسرة الخليفة جلول، ناتب شيخ العرب بوعزيز بن قانة، ومعارضة قبائل أخرى للتيجانية، ليدعم نشاطه بعيدا عن ضغوط هذه الطريقة، وضغوط الإدارة الاستعمارية التي كانت تساند الخليفة جلول.

وفي الأغواط لم يقتصر نشاط الميلي على التدريس فقط. بل كان يلقي دروسا في الوعظ والإرشاد في الجامع العتيق أيضا. كما أسس جمعية خيرية لمساعدة الفقراء والمساكين. ونظرا لسمعة الميلي ومكانته في الوسط الأغواطي المثقف فقد خصص له مبلغ مالي معتبر كراتب شهري. وحسب بعض المصادر فإنه كان يتقاضى سبعمائة فرنك (700 فرنك) في الشهر. وهو أجر مرتفع جدا مقارنة بالمرتبات التي كان يتقاضاها الموظفون والمعلمون. فقد كان راتب معلم العربية آنذاك مثلا لا يتعدى ثلاثمائة فرنك(25).

وفي الأغواط أيضا أنجز الميلي أهم أعماله، بل أهم عمل تفتخر به الحركة الإصلاحية في الجزائر. وهو تأليفه لكتاب في جزأين ونعني به "تاريخ الجزائر في القديم والحديث "(26). والحقيقة أن صاحبه قد عانى الكثير من المشاق لإخراجه إلى الوجود. ذلك انه لا تكوين الميلي التقليدي ولا ثقافته العربية الخالصة كانا يؤهلانه للقيام بهذا العمل. كما انه لم يكن يحسن اللغة الفرنسية التي كتبت بها أغلب مراجع التاريخ الجزائري. ولولا عزيمته وروحه الوطنية لما استطاع الميلي من إتمام تاريخه هذا. ذلك أن الفرنسيين لكي يوطدوا حكمهم في الجزائر. حاولوا أن يبرروا استعمارهم ويبرهنوا على انهم جاءوا إلى الجزائر لتخليص شعبها من "القراصنة" الأتراك. وأن وجودهم بهذا البلد ما هو إلا لإكمال مهمة روما الحضارية. وقد ازدادت هذه النزعة في البروز وفي التعبير عن آرائها بأكثر وقاحة بقرب الاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر سنة 1930(27). وقد وجد الوطنيون في ذلك فرصة للرد على اطروحات هؤلاء "المؤرخين" وتفنيد مزاعمهم. وكان مبارك الميلي من بين الرواد الذين تولوا هذه المهمة. ولأن الكتابة في مثل هذه الموضوعات التاريخية تتطلب الرجوع إلى المراجع الفرنسية فقد اعتمد مبارك الميلي. حسب بعض الشهادات، في جمع المادة وترجمتها إلى اللغة العربية على بعض معارفه من الاغواطيين الذين يحسنون اللغة الفرنسية(28). في حين يذكر أحمد توفيق المدني(29) أنه هو الذي جمع المادة باللغة الفرنسية وترجمها له. فيقول:"فتعهدت له، بأن اجمع له أهم المصادر الفرنسية. وان اقدم له مترجما إلى العربية ما يهمه من ذلك...". وهناك رسائل متبادلة ما بين الميلي والمدني تثبت قول هذا الأخير. إلا أن هذا لا يعني أن الميلي قد استعان بالمدني فقط.

بالاضافة إلى هذا الإنجاز الكبير. استطاع الميلي بمساعدة بعض الاغواطيين المهتمين بميدان الثقافة والتعليم أن يدشن مدرسة جديدة وهي "مدرسة الشبيبة" التي اعتبرها بعض المعاصرين له "من أولى المدارس العصرية النادرة في ذلك الوقت"(30). ذلك أنها كانت من بين المدارس الرائدة (بالإضافة إلى مدرستي الجزائر وقسنطينة) في تنظيم امتحانات الحصول على شهادة التعليم الابتدائي(.C.E.P). وكان ذلك في نهاية السنة الدراسية 1930(31). وكانت هذه المدرسة تحضر للدخول إلى الجامع الأخضر الذي كان يشرف عليه الشيخ ابن باديس. والذي يحضر بدورد للدخول إلى جامع الزيتونة. وقد استطاع الميلي. خلال الفترة التي قضاها بالاغواط أن يحضر ويرسل بعثة من طلابه بهذه المدرسة إلى جامع الزيتونة. كما تولى بعض تلاميذه. فيما بعد. مسئوليات في جمعية العلماء. كالشيخ أبو بكر الاغواطي. الذي كان هو الكاتب العام لجمعية العلماء(1948). واحمد بوزيد قصيبة. واحمد شطة وغيرهم.

إن وجود مبارك الميلي بمدينة الاغواط لا يعني انه كان منعزلا عما كان يجري على الساحة الوطنية آنذاك. وخاصة فيما يتعلق بالتحضير لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ذلك انه كان يساهم من حين لآخر ببعض المقالات في مجلة الشهاب حول مواضيع الساعة آنذاك كمسألة إلغاء الخلافة ومحاولات إعادة إحيائها وقضية التجنيس والاندماج، كما ساهم بآرائه في المناقشات التي كانت تدور حول ضرورة تأسيس "حزب ديني". وهو المشروع الذي أثمر بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ويظهر أن تعيينه كأمين مال للجمعية في شهر ماي 1931 لا يعود بالضرورة إلى خبرته أو تخصصه في هذا الميدان. بقدر ما يعود إلى جهوده في تأسيس هذه الجمعية وإلى نزاهته وصرامته في التسيير. وقد ساهمت كل هذه العوامل السابقة (تأليف كتاب تاريخ الجزائر ـ الإشراف على مدرسة ـ عضو جمعية العلماء) في صعود نجم مبارك الميلي وشهرته في المنطقة. ولذلك لم يكتف بنشر أفكاره والدعوة لها في الاغواط فقط. بل كان يسافر من حين لآخر إلى المدن المجاورة أيضا مثل بوسعادة والجلفة وأفلو لإلقاء دروس في الوعظ والإرشاد.

إن النجاح الكبير الذي حققه مبارك الميلي، في منطقة معروفة بولائها للطرقية سرعان ما نبه السلطات الفرنسية المحلية إلى خطورة استمرار هذا المصلح في دعوته. خاصة وأن الإدارة الاستعمارية. وبعد تساهلها مع مؤسسي الجمعية التي ضمت كل من المصلحين والطرقيين في السنة الأولى (1931). شرعت في السنة الموالية (1932) تتخذ موقفا عدائيا من المصلحين وجمعيتهم، نتيجة للانشقاق الذي حصل بين الطرفين ونتج عنه تأسيس جمعية علماء السنة. وقد أدى ذلك إلى منعهم من الوعظ والإرشاد بالمساجد "الرسمية". كما أوصت الإدارة موظفيها بتشديد الرقابة عليهم. خاصة وأنها اتهمتهم بالعمل على نشر "الدعوة الوهابية" بالجزائر. وبدون شك أن هذا الموقف تجاه جمعية العلماء التي كان الميلي أحد مسئوليها. هو الذي دفع بمدير الشؤون الأهلية. جون ميرانت

MIRANTE (Jean) إلى الضغط على الخليفة جلول وأعيان المنطقة حتى يتخلوا عن دعمهم لمبارك الميلي. وعندما رأى هذا الأخير أن الموقف أصبح لا يطاق بعد أن أدار له الظهر من كان يسانده بالأمس، فكر في الرحيل عن الأغواط بعد أن قضى بها سبع سنوات "كان فيها من أهم الداعين للإصلاح الديني في الجنوب الجزائري..."(32).

في ميلة :

غادر الميلي الأغواط سنة 1933 بعد أن بذر فيها بذور الإصلاح وترك بها الكثير من مريديه وتلامذته الذين اكملوا فيما بعد مشواره، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد أن أتم تأليف كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الذي صدر الجزء الثاني منه سنة 1932. بعد الأغواط حاول الميلي الاستقرار بمدينة بوسعادة في الشمال التي كان يزورها فيما مضى من حين لآخر. ويظهر أنه لاقى نفس الصعوبات التي كان قد لاقاها في الأغواط في المدة الأخيرة. ولذلك تركها هي الأخرى عائدا إلى مدينة ميلة. ولم تكن عودة مبارك الميلي إلى هذه المدينة من أجل التقاعد، فقد قام فيها هي الأخرى بأعمال كثيرة تمثلت في تأسيس المدارس والجمعيات والنوادي الثقافية وتكوين نواة صلبة للحركة الإصلاحية. كما جعل من هذه المدينة الصغيرة، التي كانت تعيش حالة من الجمود مركزا لنشاط ثقافي وسياسي وديني، حسب تعبير أحد المتتبعين لنشاط الميلي والمعاصرين له الأستاذ نوال (M. NOEL) (33). والظاهر أن أهل ميلة كانوا ينتظرون ابنهم بالتبني بشغف كبير. فما أن حل بهذه المدينة حتى فتحوا له مدرسة قرآنية للتعليم. وبعد وقت قصير من ذلك تم فتح قاعة للصلاة عن طريق جمع التبرعات. وكان الميلي هو الإمام بها وحسب بعض التقارير فإن دروس الميلي وخطبه أصبحت تجلب أغلب المصلين، الأمر الذي أدى إلى فراغ المسجد الذي كان يشرف عليه الإمام "الرسمي" بوفمة. مما دفع بهذا الأخير إلى اتهام مبارك الميلي بالدعاية للمذهب الوهابي والقيام بنشاط معاد لفرنسا. إلا أن هذه التهمة لم تكن في الحقيقة سوى وسيلة لدفع السلطات الإدارية المحلية لاتخاذ إجراءات عقابية ضد الميلي. فكما يقول السيد نوال أن هذا الإمام كان يخشى من أن يأخذ منه الميلي المصلين من "المسجد الرسمي" ويبقى بذلك وحيدا، وهو ما يؤدي إلى حذف منصبه. وأن خلاف المذهب ما هو في الحقيقة إلا خلاف مصالح(34).

رغم المشاكل التي كان يواجهها الميلي، إلا أنه لم يتوقف عن نشاطه. فبعد المدرسة والمسجد أنشأ النادي الإسلامي الذي جاء في إطار نشاط جمعية العلماء التي أنشأت الكثير من مثل هذه النوادي عبر مختلف أنحاء الجزائر. وكان الغرض منها تسهيل الاتصال بالشبان الذين لا يتوافدون على المساجد. كما ساهمت هذه النوادي في إعادة إحياء الثقافة العربية، وذلك بتنظيم المحاضرات وإلقاء الدروس العامة بها(35). وقد استطاع الميلي من كسب عطف وتأييد رئيس البلدية الفرنسي السيد جيلي GUILI، ضد خصومه من الجزائريين والفرنسيين. وتمكن هو وزملاؤه.

وخاصة السيد بن عميرة رئيس النادي. من إقناع رئيس البلدية بتولي الرئاسة الشرفية لهذا النادي. وفي نفس الفترة تقريبا، أي في نهاية سنة 1934، أسس الميلي جمعية حياة الشباب التي ترأسها بن عميرة أيضا. وكان هدفها تنظيم وتربية الشباب على مبادئ الإسلام وإبعادهم عن المخاطر التي كانت تهددهم كالمخدرات والسرقة...الخ. غير أن أكبر إنجاز حققه الميلي يتمثل في مشروع بناء مدرسة، وقد أعلن عنه في أواخر سنة 1935. وقد وجد هذا المشروع، حسب بعض المصادر الفرنسية، تجاوبا كبيرا من جانب السكان. فقد تبرعت بعض العائلات بأراضيها وبما تملكه من ذهب. وهناك من الرجال من تبرعوا بيراتسهم من أجل المساهمة في هذا البناء الجماعي(36). وقد استطاع الميلي، في ظرف قصير، من جمع أربعين ألف فرنك مكنته من بناء مدرسة حديثة والى جانبها مسجد كبير للصلاة.

بالإضافة إلى نشاطه المدرسي والمسجدي والاجتماعي بمدينة ميلة، كان الميلي يساهم من حين لآخر بمقالاته في مجلة الشهاب لابن باديس، والبصائر لجمعية العلماء. وقد نشر بهذه الأخيرة خاصة سلسلة من المقالات حول " الشرك ومظاهره" ثم جمعها بعد ذلك في كتاب تحت عنوان:رسالة الشرك ومظاهره. وتعتبر هذه الرسالة أهم مساهمة لجمعية العلماء في ميدان العقيدة، وإن كانت موجهة بصفة خاصة إلى مقاومة البدع التي كانت منتشرة آنذاك والتي تقف وراءها الطرقية. كما تولى الميلي أيضا رئاسة تحرير جريدة البصائر التي حولت من مدينة الجزائر إلى قسنطينة، بعد اتهام الشيخ الطيب العقبي(37) في قضية اغتيال الإمام بن دالي عمر المعروف باسم الشيخ كحول(38). وقد تولى الإشراف عليها من سنة 1937 إلى غاية توقيفها من طرف الجمعية عشية الحرب العالمية الثانية.

ونظرا لتكوينه الرزين وتبحره في العلوم الدينية فقد عوض الميلي أستاذه ابن باديس عند وفاته في افريل 1940، في إدارة شؤون الجامع الأخضر والإشراف على الدروس به، إلا أن حولت هذه الدروس فيما بعد إلى تبسه وأصبح يشرف عليها الشيخ العربي التبسي. إلا أن الأجل لم يطل به كثيرا، فقد لحق بأستاذه بعد أقل من خمس سنوات، متأثرا بداء السكر الذي كان يعاني منه منذ بضع سنوات. والحقيقة انه بالرغم من أن مبارك الميلي يظهر كالشخص الأكثر تحفظا في المدرسة الإصلاحية الجزائرية، كما يقول علي مراد(39)، إلا انه يعتبر في الواقع وبدون منازع الأكثر عمقا والأكثر فعالية.

الهوامش:

(1) لقد اهتمت لحد الآن العديد من الدراسات بشخصية ابن باديس، نذكر منها: ابن باديس حياته وآثاره، أربعة أجــــزاء، إعداد وتصنيف عمار الطالبي، دار اليقظة العربية، دمشق، 1968 ؛ محمد قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس: الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف، القاهرة، 1968 ؛ تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلســـفته وجـــهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969 ؛ حسن عبد الرحمن سلوادي، عبد الحميـــد بـــن بـــاديس مفسرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984؛

Ali MERAD, Ibn Badis commentateur du Coran, Geuthner, Paris, 1971

Id.: «Ibn Badis ou la fondation du mouvement orthodoxe en Algérie ». In. Les Africains, t. II, 1977, pp. 1466-1470.

(2) حول الإبراهيمي أنظر مازي نجم، الإبراهيمي في حياته وبعض آثاره المنشورة والمخطوطة، مخطوطة بمكتبة الدكتور أبـــو القاسم سعد الله ؛ محمد العيد تاورتة، نثر الإبراهيمي في الفترة 1929ــ1939، رسالة ماجستير، جامعـــة قســـنطينة، 1980. محمد زرمان، المرجعية الفكرية عند محمد البشير الإبراهيمي، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر، 1992. كما خصـــص له عدد خاص بمجلة الثقافة، العدد 87، مايوـــيونيو 1985. ونشرت أيضا آثاره في عدة أجزاء.

(3) بالإضافة إلى المقالات التي كتبت حوله هنا وهناك، خصصت له رسالة ماجستير من طرف الطالب أحمد مريوش، الطيـــب العقبي ودوره في النهضة الوطنية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1992.

(4) جمعت آثاره من طرف أحمد شرفي الرفاعي تحت عنوان: مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، جزأين، دار البعث، قسنطينة، 1985.

(5) بالإضافة إلى بعض المقالات التي نشرت حوله هنالك رسالة ماجستير أعدت تحت إشرافنا وهي للطالب نور الدين ثنيـــو، بعنوان: قضايا الحركة الإصلاحية عند الأمين العمودي ورابح زناتي، معهد الحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبـــد القـــادر، 1998.

(6) البصائر، 08، مارس 1948 والبصائر، 15 مارس 1948. وقد شارك في هذين العددين كـــل مـــن الإبراهيمـــي بمقـــال بعنوان:"مبارك الميلي" ؛ أحمد بوزيد قصيبة:"حياة رجل الإرادة مبارك الميلي 1898ــ1945" ؛ أحمد توفيق المدني:"مبارك الميلـــي مؤرخ الجزائر" ؛ علي مرحوم:"آثار الأستاذ مبارك الميلي في بناء المجتمع الجزائري" ؛ الصادق حماني:"مظاهر العبقرية في الشيخ مبارك".

(7) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الجزء الثالث، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1969.

(8)Ali MERAD, Le Réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940. Essai d'histoire religieuse et sociale, Mouton, Paris-La Haye, 1967, pp. 91-93.

(9) المصدر نفسه ص ص199ــ205.

(10)Jean NOEL: « L'evolution religieuse à Mila. »In. Renseignements Coloniaux, n°3, mars 1938. pp. 32-34.

(11) البصائر، 08 مارس 1948.

(12) المصدر السابق، ص 33.

(13) البصائر، 15 مارس 1948.

(14) البصائر، 08 مارس 1948.

(15) الشيء الذي نعرفه عن الشيخ بن منصور محمد الميلي أنه ينحدر من جبال الأوراس، وهو من تلامذة عبد القادر المجاوي. وسمي بالميلي نسبة إلى مدينة ميلة التي حل بها.

(16) البصائر، 08 مارس 1948.

(17) محمد علي دبوز، المرجع نفسه، ص 261.

(18) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى الوقت الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، 1980، ص325.

(19) أحمد بن ذياب:"الأستاذ مبارك الميلي والصحافة". مجلة الأصالة، العدد 68ـــ69، أفريل ـــ ماي 1979، ص97.

(20) البصائر، 08 مارس 1948.

(21) البصائر، 08 مارس 1948.

(22) هو عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن أحمد الشريف، وهو الابن الثالث. ولد سنة 1898 بقرية البياضة بالوادي، واصل تعليمه بالزيتونة بين سنتي 1913 و1923، وبعد عودته ترأس الزاوية القادرية بعميش. منذ منتصف الثلاثينات بدأ يتقرب من جمعية العلماء، ثم انتخب سنة 1937 عضوا بمكتبها الإداري. ومنذ ذلك الوقت تغير موقف الإدارة الاستعمارية نحوه. في بداية سنة 1938، وعند زيارة لويس ميو(Louis MILLIOT) مدير الشئون الأهلية للوادي احتج عبد العزيز على مرسوم 08 مارس 1938 الذي يحد من حرية التعليم العربي الحر، وعندها ألقي عليه القبض وأودع سجن الكدية بقسنطينة، ولم يفرج عليه إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. غير أنه بقي مبعدا عن منطقة الوادي حتى وفاته في بداية الاستقلال. أنظر عنه دراستنا "عبد العزيز الهاشمي والإصلاح"، التي ستصدر في المجلة التاريخية المغاربية لشهر ماي 2000.

(23) محمد علي دبوز، المرجع نفسه، ص 254.

(24) النجاح، 18 أوت 1926.

(25) المرجع نفسه، ص262.

(26) صدر الجزء الأول منه سنة 1925 والجزء الثاني سنة 1933. أنظر حول هذا الكتاب: Saadeddine BENCHENNEBy:«Quelques historiens arabes modernes de l'Algérie »In. Revue Africaine, t.c.1956, pp. 475-499.

(27) حول ما نشر بهذه المناسبة أنظر:

Charles Robert AGERON, Histoire de l'Algérie contemporaine, t.II, Puf, Paris, 1979, pp. 403-411 ; Mahfoud KADDACHE, Histoire du nationalisme algérien. Question nationale et politique algérienne(1919-1951), t.I, Sned, Alger, 1981, pp.237-269.

(28) محمد علي دبوز، المرجع نفسه، ص 263.

(29) جاء ذلك في:"مبارك الميلي مؤرخ الجزائر" البصائر، 08 مارس 1948، وكذلك في حياة كفاح، مذكرات. الجزء الثـاني في الجزائر 1925ـ1954، ط2. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص ص209ـ211.

(30) أحمد بوزيد قصيبة في البصائر، 08 مارس 1948.

Ali MERAD, op. cit. note 1, p. 343. (31)

(32) المرجع نفسه، ص 92.

(33) المصدر نفسه، ص 33.

(34) نفس المصدر والصفحة.

(35) أنظر عن ذلك دراستنا:"الجمعيات والنوادي الثقافية ودورها في الوعي الوطني الجزائري خلال الفـترة 1919ـ1939." في أعمال المؤتمر الثاني لمنتدى التاريخ المعاصر حول: الثقافات والوعي الوطني في العالم العربي المعـاصر، مؤسسـة التميمـي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان جويلية/تموز 1999، ص ص 189ـ198.

(36) نفس المصدر وكذلك:

Situation politico religieuse dans la commune de Mila (juin 1936), p. 4.

(37) الطيب العقبي (1888ـ1960) من مواليد قرية سيدي عقبة بنواحي بسكرة. التحق سنة 1896 بعائلته بالحجاز. ولم يعد إلى الجزائر إلا سنة 1920. في سنة 1927 أنشأ جريدة الإصلاح، وبعد تأسيس جمعية العلماء شغل منصب أمين عام مسـاعد. في سنة 1938 انسحب من الجمعية واستقل بدعوته الدينية.

(38) من مواليد سنة 1875 بمدينة قسنطينة، استقرت أسرته فيما بعد بمدينة الجزائر وهناك مارس وظيفة الترجمة لـدى إدارة الحكومة العامة. كما عمل في ميدان الصحافة ودرس بالجامع الكبير بالجزائر. اغتيل في شهر أوت 1936 في ظروف غامضـة. وأتهم الطيب العقبي وزميله

عباس تركي بالتحريض على قتله، إلا أن العدالة برأتهما فيما بعد.

(39)Ali MERAD, op. cit. p. 92.